أهل القرية

"قصة قصيرة"

منذ ولدت وأنا أرى أمامي ثلاثة نماذج للحياة في قريتنا الضائعة...

وهي قرية ضائعة بالمعني المادي والنفسي، فهي قرية مغمورة من قرى الدلتا لا يسمع عنهـا أحد من ساكني المدن أو من القرى المجاورة، لا تتمتع بأبسط حقوق الآدمية، فهي محرومـة من مياه الشرب، رغم أنها تبعد عن نهر النيل العظيم مسافة ثلاثين كيلومترا، ورغم أن هـذا النيل نفسه يروي قرى مثلنا على ساحل البحر المتوسط تدعي "قرى سياحية" بأفضـل وأنقـي مياهه، ومع ذلك فقد سمعت أن ساكني هذه القري يأنفون من مياهه ويستعيضون عنها بميـاه معدنية تخرج من أنقي آبار مصر الجوفية!

من هنا كانت قريتنا ضائعة ماديا.....

أما الضياع المعنوي فقد كان ناجما عن الحالة النفسية المتدهورة لسكان قريتنا، فالتعليم يكـاد يكون منعدما.. المدرسة الوحيدة مكتظة بالتلاميذ.. الفقر مدقع.. الأطفال حين يكبرون وينهون تعليمهم الجامعي يكتشفون بعدها أن الطريق مسدود وملئ بالمطبـات بـدءا مـن المسـتوي الاجتماعي الذي يحكم علينا كلنا أهل القرية بأننا عبيد الأرض لا نرقى إلى مسـتوى السـادة، مرورا بالجهل باللغة الإنجليزية ولغة العصر اللتين سمعنا عنهما في الكتب، ووصـولا إلـى الوساطة التي لا نملك من أهدابها سوى "عم كامل" الذي هاجر إلى طنطا ليعمـل كاتبـا فـي نيابتها.. وعلى الجملة، فنحن ذباب لا يستحق الحياة إلا متعلقا بذيول سـادتنا.. هـذا إن قبـل السادة..

ومن هنا كان الضياع المعنوي....

أما عن نماذج الحياة في قريتنا التي ذكرتها آنفا فذلك موضوع يستحق التوقف عنده...

النموذج الأول هو صاحب السعادة "واصل أفندي" رمز النجاح الخارق في قريتنا الضائعة..

كانت عائلة واصل أفندي عائلة عتيدة في الضياع!!..

جده الأعظم والأكثر ضياعا استدعاه مراد بك إبان حملة الفرنساوية ضمن آلاف من الشـبان الأقل ضياعا.. لبى جده نداء الجهاد وسمع فتاوى فحول الأزهر فحمل سيفه، وذهب رأسا إلى ربه في السماوات العلا إثر رصاصة طائشة جاءته من أحد زملائه في أول تجربة له لحمـل البنادق!!..ولم يفز جده المسكين من ثم بجوائز الشهيد التي يحصل عليهـا فـور شـهادته..

أخبرتني أمي الراحلة حين استحضرت روحها أنه من أتعس أهل الجنة!!.. بضربة واحدة كان سيقفز إلى الفردوس، ولكن هيهات.. تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!!..

جده الأقل عظمة كان أول من تعلم القراءة والكتابة في قريتنا إبان عهد محمـد علـى باشـا الكبير،استدعوه عند حفر قناة السويس في عهد سعيد باشا طيب الله ثراه، فشارك فـي الحفـر خدمة للوطن وإعلاء لكلمة الله، لكنه لبي نداء ربه إثر مشاجرة مع زميله قتل كل منهما فيهـا الآخر.. أخبرتني أمي أنه الآن من أهل النار، ولو انتظر قليلا لمـات فـي أعمـال الحفـر ولاستحق حينئذ دخول الجنة التي تمتلئ بزملائه الأبرار..

لكن قنبلة الضياع في هذه العائلة الميمونة كان بلا شك عباس أفندي الجد المباشـر لواصـل أفندي، والذي كان من أشد المتحمسين لـ"سعد زغلول باشا" وشارك في ثـورة 1919 بكـل قوته، وعندما احتل الإنجليز قريتنا وأعملوا فيها السلب والنهب والاغتصاب رأى فـي ذلـك انهيار حلمه وصور له خياله أن الحرية التي حلم بها الجنس البشري قد ماتـت بـلا عـودة فانتحر.. أخبرتني أمي أنه في الدرك الأسفل من النار.. أما سعد زغلول باشا فقد صار بعـد رئيسا لوزراء مصر ومات وهو على عرش المجد بل إن أمي تقول أنه يحتل مكانة لا بـأس بها في الجنة.. رحمة الله عليك يا عباس أفندي..ويلي مغفرتك يا إلهي فطلب الرحمة لا يجوز لمن مات كافرا..

وهكذا كانت عائلة واصل أفندي تمضي من ضياع إلى ضياع، إلى أن ولد واصل أفندي قنبلة النجاح المتفجرة في العائلة المنكوبة...

كان واصل أفندي في بدء حياته (وربما في نهايتها) لا يبـدي أي اسـتعداد طبيعـي للنبـوغ والتفوق.. كان في أسفل درجات الفقر.. ثيابه كانت بالنسبة لنا في القرية تـدعو للشـفقة.. لا يستحم إلا في الأعياد المقدسة، ولا يلمس الماء جسده العفن إلا في غفلة من الزمن...

لكن حياته تغيرت فجأة.. ففي يوم ضائع لم يحتسب ضمن أيام التاريخ جاء خطـاب بطريـق الخطأ إلى واصل أفندي يفيد بأنه سيعين في إحدى الوظائف الميري الكبرى في قاهرة المعز.. كانت القاهرة ومازالت بالنسبة لنا كنيويورك بالنسبة إلى مقديشو.. أرض الأحلام.. في ذلـك اليوم جاء واصل أفندي إلى منزلنا ليقترض قميصا وبنطلونا من والدي الراحل.. هذا القميص وذلك البنطلون اللذان كان مفخرة أبى وأهل القرية لا يرتديهما شخص إلا للحفـلات الكبـرى كالعرس والختان.. أذكر أنه اقترض كذلك حذاء أبى لكي يكمل الأناقة.. لكنه نسي أن يقترض جوربا فارتدي الحذاء بلا جورب.. في قريتنا الناس يخدم بعضها بعضا بكل ما يملك.. فأعطاه والدي ما أراد...

رحل عنا واصل أفندي ليذهب إلى القاهرة.. فصدم فيما يعرف بصـدام الحضـارات.. رأى السيارات الفارهة بدلا من الحمير والبغال.. رأى الطرق الممهدة.. الثياب التي لم يرها بشـر

لدينا..اكتأب لأيام وأحس بالنقص والضياع لكنه أفاق بعدها أكثر إصرارا على المضـي فـي طريقه.. وبالفعل تغير واصل أفندي.. تعلق بأهداب السادة وارتشي.. وتنكر لنا نحـن أهلـه وعشيرته.. عندما زاره أهل القرية ذات يوم تحجج بأنه ليس لديه الوقت الكافي للزيارة فـرد أهل القرية خائبين.. منذ ذلك اليوم وأهل القرية يقسمون بأن واصل أفندي لن يرى خيرا...
لكنه رأى الخير كل الخير.. ترقي في المناصب.. انتقل من نجاح إلى نجاح.. دخل المجلـس الموقر كنائب عن إحدى القري المجاورة (عندما تبين له أنه لا يملك أية شعبية لدينا) وعـين وزيرا للتعليم العالي (ذلك الذي لم يقرأ كتابا في حياته)..
ومن جهة أخري بدأ واصل أفندي يعمل لآخرته كأنه يموت غدا، فبدأ يصلي ويصـوم.. زار البيت الحرام أكثر من ستين مرة.. ابتعد عن كل شهوات الدنيا..تبرع بأغلـب مالـه للأيتـام والمساكين.. والآن هو في الفردوس الأعلى كما أخبرتني أمي وهي تتميز من الغيظ.. لعن الله واصل أفندي.. أستغفر الله.. رحم الله واصل أفندي ووسع له في جنات النعيم والحور العـين والإستبرق!!

أما النموذج الثاني للحياة فهو وحيد أفندي رمز العلم الصارخ في قريتنا الضائعة.. لكن عائلة وحيد أفندي كانت لا تمت للعلم بصلة بل نموذجا في الجهل المعيب!!..
جده عاش طيلة عمره لا يعرف كيف يقرأ حرفا، أو حتى يكتب اسمه.. كان مؤمنـا بشـفاعة الأولياء إلى أبعد الحدود.. ذات يوم اتهمه أحد الشيوخ بأنه مشرك تماما مثل أبى جهل، لكـن الرجل لم يهتم واستمر على قناعته وإيمانه إلى أن مات وهو يبكي في ضريح السيدة نفيسـة.. واختلفت فيه الآراء.. قال البعض هو في النار حتما أما الآخرون الأكثر تسامحا فقد قالوا ربما يغفر له الله ذنوبه وأكد الجاهلون من أمثاله أن السيدة نفيسة ستشفع له لا محالة، وأنه سـيلقي النعيم الأبدي في جنات عدن، أمي أخبرتني أنه يتردد بين الجنة والنار ولا أحد يعلـم مثـواه الأخير..
لكن وصمة العار الأبدية في عائلة وحيد أفندي تمثلت في أمه.. فوحيد أفندي جاء إلى الـدنيا إثر علاقة آثمة بين والده وبين عاهرة مرت بالقرية فعلت فعلتها الشنعاء وأنجبت وليـدها ثـم رحلت بلا عودة..
أما وحيد أفندي فقد نشأ عاشقا للقراءة وكارها لأهل القرية الذين كانوا دائمـا ينظـرون إليـه بشماتة مذكرين إياه بأصله الوضيع.. فوحيد أفندي فضلا عن أمه الطاهرة كان قد رزق بـأب من الأبرار الفجار.. أب من هؤلاء الذين ماتت قلوبهم فلم تعد تخش العزيز الجبار..لا يتواني عن فعل المعاصي بليل أو نهار.. كان أبوه قد أمضي حياته العطرة دون أن يصـلي ركعـة واحدة.. زجاجة النبيذ كانت لا تفارق يده.. لم يفق من دنيا الأحلام التي يحلق بها سوي مـرة

واحدة عرف فيها بميلاد ابنه الوحيد "وحيد" لكنه لم يصدق أنه ابنه وظل يتهم العاهرة بالكذب ويقذفها بأقذر الشتائم، لكنها بادلته السيئة مثلها وأوسعته ضربا وتركت لـه ابنـه المزعـوم وهربت من قريتنا.. كانت تلك الحادثة من الحوادث الشهيرة في تاريخ قريتنا المجيد، بل تكاد تكون أهم حادثة في تاريخه، فالتاريخ انقسم بسببها إلى قسمين "ما قبل معركة العاهرة مع أبو وحيد أفندي الفاسق" وما بعدها. تماما مثلما قسم فتح العثمانيين للقسـطنطينية التـاريخ إلـى عصور وسطي وعصر حديث. هكذا كان ميلاد "وحيد أفندي" مولد الحداثة في قريتنا البدائية.

والحق أن وحيد أفندي لم يتوان عن تحديث قريتنا بكل السـبل مـدفوعا بكراهيـة محمومـة للتخلف البادي في وجوه الأهالي، فحاول أن يعلم أهل القرية القراءة والكتابة لكنهم لم يتقبلـوا تلقي العلم على يد شخص "ابن عاهرة" أو "ابن كلب" مثله، فتهكموا عليه مثلما حدث للأنبيـاء والرسل وكافة المصلحين ودعاة التنوير.. هكذا كان وحيد أفندي يردد دوما أنه لا كرامة لنبي في وطنه وأنه ربما يلقي مصير سقراط فيتم إعدامه، فقذفه أهل قريتنا الأجلاء بالبيض الفاسد. منذ ذلك اليوم ووحيد أفندي يؤثر السلامة والوحدة، لكنه اقترب يوما من شباب القرية يحـاول إصلاح عقولهم الفاسدة على حد زعمه، فأوهمهم أن كل الأديان والفلسفات هي محاولات للفهم وأنه لا ميزة لأحدها على الأخرى، وأن كل عقل يختار ما يلائمه من عقائـد، وأن الشـعائر (كالصلاة والحج) ليست بذات أهمية.. قاتله الله!!.. لكنه تلقي العقاب الذي يليق بأمثالـه فـتم ضربه بالفلقة حتى تورمت قدماه، ولكي يثبت حسن نواياه بعد ذلك سب مسيحيا في الطريـق بلا أي سبب وقذفه في المصرف فكادت تحدث فتنة طائفية لولا أن شيوخ القرية قرروا ضرب وحيد أفندي بالفلقة مرة أخرى فنال العقاب استحسان الجمـاهير السـادية المتعطشـة للقتـل والتعذيب.. بعدها أصبح وحيد أفندي معزولا تماما يحتقره المسـيحيون ويلعنـه المسـلمون المتسامحون والسماوات العلا..

وعندما وافته المنية، لم يلحظ أحد اختفاءه، لولا أن رائحة جثته المتعفنة قد فاحت فـتم كسـر الباب وإلقاء الجثة في المصرف.. والعجيب أنه وجد محتضنا "إنجيل المسيحيين" عند موتـه.. فسبب ذلك خلافا شديدا في الرأي بين أهل القرية.. المسلمون يؤكدون أنه فـي النـار، أمـا المسيحيون فيؤكدون أن يسوع قد أخذ بيده من دنيا الشيطان إلى دنيا الله.. أمي تؤكد إنها لـم تره في الجنة، وأنه ربما يكون قد ذهب إلى جنة المسيحيين المزعومة. وتكـاثرت الشـائعات حوله.. بعض أنصاره الملعونين قالوا أنه رفع إلى السماء لا إلى المصـرف وأنـه المهـدي المنتظر الذي سيملأ الدنيا عدلا، واتخذوا بيته مقصدا للحج والبركة، يطوفون حوله كأنه الكعبة ويقبلون جدرانه.. والبعض الآخر يقول أنه المسيح الدجال ويؤكد أحدهم أنه قرأ بنفسه كلمـة "كافر" مكتوبة بوضوح على جبينه وأن "وحيد أفندي" من ثم يعد من علامات الساعة الكبرى.. والبعض شبهه بالحلاج الفاسق المتأله.. لكن المؤكد أن ميلاد وحيد أفندي كان نقطة فاصلة في

تاريخ القرية الذي يجري بلا هدف وبلا انقطاع.. لعن الله وحيد أفندي وأمثاله مـن الملاحـدة والزنادقة والمسيحين الدجالين والحلاجين وكل من حذا حذوهم..

النموذج الثالث للحياة في قريتنا البائسة هو والدي "عبده أفندي" أحد أقدم الفلاحين والمزارعين في قريتنا والذي وافته المنية وهو يحرث أرضه فروى الأرض بدمائه!! وعلى عكس "واصل أفندي" رمز النجاح الضائع و"وحيد أفندي" رمز العلم الضار، لم يكن والـدي "عبـده أفنـدي" رمزا لشيء على الإطلاق..

ولعل مصدر فخر "عبده أفندي" الأعظم هو ذلك التمثال الحجري الذي ورثه عن آبائه وأجداده والذي تناقلته الأجيال– على حد زعمه– منذ عهد "سنوسرت الثالـث" أحـد ملـوك مصـر المحروسة في عهدها الغابر. والتمثال يمثل الفلاح في ذلك العهد بكل ما يملـك مـن كرامـة وعزة نفس. فالجد الأعظم لـ "عبده أفندي" (وهو صاحب التمثال) كان من أشد المناصـرين للسياسات الإصلاحية التي اتبعها الفراعنة من شق الترع وبناء الجسور، لكنه انقلـب عـدوا للنظام– وإن لم يصرح بذلك إلا لذاته– بمجرد أن أدى شق الترعة إلى ضياع أرضه، وناصر الهكسوس حين قالوا أنهم المصلحون في الأرض. وهكذا لم يكن ذلك الجد يهتم بشيء سـوى الأرض وقوت يومه.

لكن الله نزع الموهبة من آل عبده أفندي فشجرة عائلته لا تحوي سوى فلاحين مساكين، غيـر أن "عبده أفندي" كان يفخر بكونه فلاحا أصيلا لا مهجنا كدجاج المزارع. ومثلما يؤكل الدجاج بعد أن يذبح وينتف ريشه فإن آل عبده أفندي تم ذبح أي نبوغ لديهم ونتف أية آراء ناشئة في عقولهم وأكل محصول أرضهم...

وتعرض عبده أفندي ذات يوم للمحاولات الإصلاحية التعليمية من قبل وحيد أفنـدي, فآلمـه بدرس شاق عن الذات والموضوع, وما إذا كان للأشياء وجود خارجي مسـتقل عـن ذواتنـا العارفة. وكانت حصافة عبده أفندي, من حيث تظاهره الكاذب بالفهم, الأمر الذي جعل الموقف يمر بسلام لولا السؤال الذي ألقاه عليه وحيد أفندي في نهاية الـدرس ليتأكـد مـن اسـتيعابه للموضوع, فما كان من عبده أفندي إلا أن قال وقد فاض به الكيل: "لعن الله أمـك يـا وحيـد أفندي, وحرق ذاتك مع موضوعك مع أمك العاهرة مع أبيك القواد في نار جهنم.. جميعا بإذن الله يا ابن العاهرة".. فأصابت الدهشة وحيد أفندي إذ أدرك أن عقل والدي عجز عن استيعاب تلك المشكلة الفلسفية التي كانت, وارتفاع الأسعار, حديث القرى المجاورة في مصر والعـالم لسنين طويلة..

وكان عبده أفندي رجلا عمليا يزرع ويحصد نتاج ما زرع ويسلمه للحكومة.. قال لـه وحيـد أفندي ذات يوم: "أنت ببراجماتي يا عبده".. فسب والدي أم وحيد أفندي ورد له السـيئة قـائلا

باقتدار: "وأنت برميل قذارة يا وحيد القرن".. كنت ترى في عينيه أنين الشكوى من الحكومـة مكتوما ودموع الحسرة حبيسة!!.. لكنه لم يكن يشغل باله بالمسائل التافهة.. فلم يعنه أبـدا إذا ما كان وحيد أفندي محقا أم لا.. كان يصدق المشايخ ويعبد الله ويأكل ويشرب ويعالج نفسـه بالسحر ويتبرك بالأولياء.. وأكاد أجزم أنه قد ذهب مرة ليطوف عشرا حول بيت العارف بالله "وحيد أفندي" بعد وفاته. ينادي مع الداعين على الحكومة (لكن دعاءه سري)، ويسعد إذا مـا رفعت الحكومة سعر القطن قرشا واحدا, ويقبل يدي وقدمي العمدة إذا رآه.. يقولون أنه سرق قصيدة من قصائد رابعة العدوية في العشق الإلهي, وأرسلها إلى مأمور المركز زاعمـا أنهـا قيلت على لسان عدوية في عشق الحكومة.. سألته مرة: هل تحزن لو احتلنا مستعمر؟ قال: إذا بقيت أرضي فليذهب الكل إلى الجحيم..

قالت أمي أنه قضي في النار ليلتين جزاء هذه الجملة المنطوية على حب الذات.. لكنـه الآن يحرث أرض النار وأرض الجنة لا يضيره أيهما يحرث وأيهما يزرع طالما ينال امرأة فاتنـة من الحور العين وكأسا من الخمر بعد نهاية يومه الشاق!!.. رحم الله والـدي "عبـده أفنـدي" ووسع له في رزقه..